أبو عبد الله
آخر ملوك الاندلس

للاستاذ محمد عبدالله عنان

تبوأ ابو عبد الله عرش غرناطة للمرة الثانية بعد ان قضى فى أسر ملك قشتالة زهاء ثلاثة اعوام . وكانت الخطوب والفتن التى توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها حسبما بينا ، فلم يبق منها يد الاسلام سوى بضع مدن وقواعد متناثرة مختلفة الرأى والكلمة ينضوى بعضها تحت لواء ابى عبد الله والبعض الآخر تحت لواء عمه محمد بن على (الزغل) . وكان واضحا أن مصير غرناطة يهتز فى يد القدر بعد ان نفذت جيوش النصرانية الى قلبها ، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية ، ولم يكن الملك الصغير (ابو عبدالله) طبق المعاهدة التى عقدها مع فرديناند سوى تابع لمملكة قشتالة . يدين لها بالخضوع والطاعة ، وكان ملك قشتالة يحرص من جهة أخرى على المضى فى تحقيق خطته لسحق البقية الباقية من دولة الاسلام فى الاندلس قبل أن يعود اليها اتحاد الكلمة ، فيبعث اليها روحا جديدا من العزم والمقاومة ، فبدأ بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التى يسيطر عليها مولاى الزغل لانه كان فى صلح مع غرناطة يمتد الى عامين ، وقد اراد ان يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء ، ولأنه أراد اولا أن يعزل غرناطة ، وان يطوقها من كل صوب . وزحف فرديناند بادىء بدء على مالقة أمنع ثغور الاندلس وعقد صلتها بالمغرب ، وطوقها بقوات كثيفة من البر والبحر وسقطت مالقة رغم دفاعها المجيد فى شعبان سنة ٨٩٢هـ (اغسطس ١٤٨٧م) . ثم استولى فرديناند على المنكب والمرية (اواخر سنة ٨٩٤ هـ - ١٤٨٩ م) ثم على بسطة (المحرم ٨٩٥هـ ديسمبر ١٤٨٩) ثم قصد الى وادى آش آخر معقل لمولاى الزغل ، ورأى الزغل رغم شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل وان جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب ، فانتهى الى الاذعان والتسليم ، ودخل فرديناند وادى آش فى صفر سنة ٨٩٥ هـ (يناير ١٤٩٠م) واتفق بادىء بدء أن يستمر (الزغل) فى حكم قواعده باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وان يلقب بملك اندرش ، وان يمنح دخلا سنويا كبيرا ، ولكنه لم يلبث ان رأى انه يستحيل عليه الاستمرار فى ذلك الوضع الشاذ ، فباع حقوقه لفرديناند مقابل مبلغ كبير ، وجاز البحر الى المغرب واستقر فى تلمسان يقضى بها بقية حياته فى غمر من الحسرات والعدم ، وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا ان نهاية الاسلام بالاندلس قد غدت قضاء محتوما

ثم جاء دور غرناطة آخر معقل للاسلام بالاندلس . وكانت جميع قواعد الاندلس الاخرى : مالقة والمرية ووادى آش والحامة وبسطة قد غدت نهائيا من املاك مملكة قشتالة وعين لها حكام من النصارى ، وتدجن أهلها او غدوا مدجنين يدينون بطاعة ملك النصارى (١) وذاعت بها الدعوة النصرانية فارتد كثير من المسلمين عن دينهم حرصا على اوطانهم ومصالحهم ، وخشية الريب والمطاردة ، وجازت الوف أخرى ممن خشوا على أنفسهم ودينهم الى المغرب وتفرقوا فى ثغوره ، وهرعت الوف أخرى الى غرناطة تلوذ بها حتى غدت المدينة تموج بسكانها الجدد . وكان سلطان غرناطة ابو عبدالله يرقب هذه الحوادث جزعا ويشعر انها تسير الى نتيجة محتومة هى سقوط غرناطة فى يد العدو الظافر ، وكان قد تخلص بانسحاب عمه الزغل من الميدان من منافسه القوى ، ولكنه فقد فى

وتسليما لقولنا ، فأنت تعلم أن « ما بالطبيعة لا يتخلف » ولو كان الذل ينقشه الاقليم وحده ، لما رأيت شاذا من الشواذ ، ألا ترى أن فعل الطبيعة فى الادوية يسرع اليها الفساد ، مطرد ، ومطرد دائما ، فاذا اختلف الناس فى الجبن والعزة والملق والصراحة ، فهناك عامل آخر أقوى وهو عامل التربية نستطيع به أن نتغلب حتى على قوانين الطبيعة

أرجو ألا يسمح الجيل الجديد والاجيال القادمة لمؤرخيهم ان يؤرخوهم كما أرخهم المقريزى والسيوطى ؟

أحمد أمين

---

(١) - المدجنون او أهل التدجن (الفعل تدجن ومصدره التدجن) كلمة اطلقت على المسلمين الاندلسيين الذين دخلوا فى طاعة ملك النصارى واعترفوا بها . ومقابلها الاسبانى هو كلمة Mudejares وقد شاع استعمالها منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) اعنى منذ كثر استيلاء النصارى على قواعد الاندلس

نفس الوقت أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه فى الدفاع والمقاومة ، وسرعان مابدت طوالع الخطر الداهم ، وبعث فرديناند الى ابى عبد الله يطلب اليه تسليم الحمراء (١) والبقاء فى غرناطة فى طاعته وتحت حمايته مثلما وقع لعمه الزغل : فثار ابو عبد الله لذلك الغدر ، وأدرك - وربما لاول مرة - فداحة خطأه فى محالفة ذلك الملك الغادر : وجمع الكبراء والقادة ، فاجمعوا على الرفض والدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم : ودوت غرناطة بصيحة الحرب : وحمل ابو عبد الله بعزم شعبه على القتال والجهاد ، وخرج فى قواته يحاول استرداد القواعد والحصون المسلمة المجاورة : وثار اهل البشرات وما حولها على النصارى : ووقعت بين المسلمين والنصارى عدة مواقع ثبت فيها المسلمون ، واستردوا كثيرا من الحصون والقرى فى تلك المنطقة (اواخر سنة ٨٩٥ هـ) ، وعاد ابو عبد الله الى غرناطة ظافرا ، وانتعشت قلوب الغرناطيين توقا بذلك النصر الحلب ، وأخذوا يتأهبون للدفاع بعزم . وغضب فرديناند لتلك المفاجأة التى لم يكن يتوقعها واعتزم ان يقوم بضربته الحاسمة فى الحال : فخرج فى ربيع العام التالى (٨٩٦ هـ) فى جيش ضخم مزود بالمدافع والذخائر الوفيرة : وسار توا الى غرناطة ونزل بمرجها الجنوبى وأنشأ لجيشه فى تلك البقعة مدينة صغيرة مسورة سميت سانتافى Santa Fé (شنتى) او الايمان المقدس رمزا للحرب الدينية : وهى تقوم حتى اليوم . وبدأ حصار غرناطة فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ (مارس ١٤٩١ م)

ولسنا نقف طويلا عند حوادث هذا الصراع الأخير بين الاسلام والنصرانية فى الأندلس : فهى تملأ فصولا طويلة مؤثرة فى الروايات العربية والافرنجية (٢) : ويكفى أن نقول ان غرناطة دافعت عن نفسها دفاعا مجيدا ، ولم تدخر لاجتناب قدرها جهدا بشريا : وأن فروستها الشهيرة بذلت بقيادة زعيمها موسى ابن ابى الغسان أشجع فرسان عصره ، ضروبا رائعة من البسالة ، وخرج المسلمون من مدينتهم المحصورة غير مرة واثخنوا فى النصارى . ولكن الضيق كان يشتد بالمدينة المحصورة يوما فيوما ، وتقل مؤنها شيئا فشيئا ، ويتساقط جندها تباعا . وكانت مدى الربيع والصيف تستمد بعض المؤن من جهة البشرات من طريق جبل شلير (Sierra Nevada) ، فلما دخل الشتاء غطت هذه السهول والشعاب بالثلج الكثيف : وازدادت غرناطة ضيقا ، واشتد بأهلها الجوع والمرض ، وهم ابو عبد الله بمفاوضة فرديناند فى التسليم غير مرة لولا أن كان يمنعه موسى بن ابى الغسان وتحمله الحماسة العامة ، فلما اشتد الخطب تقدم حاكم المدينة ابو القاسم عبد الملك ، وقرر أن المؤن تكاد تنفد ، وان الجوع اخذ يعصف بالشعب ، وان الدفاع عبث لايجدى : واتفقت كلمة الزعماء والقادة على التسليم : وارسل ابو القاسم لمفاوضة فرديناند : فاستقبله بترحاب وحفاوة : وتم الاتفاق على ان تسلم غرناطة بشروط كثيرة اهمها أن يؤمن المسلمون على انفسهم ودينهم وأموالهم ، وان لاتمس مساجدهم وشعائرهم وتقاليدهم : وان يجوز منهم الى المغرب من شاء (٣) : وهكذا اذعنت غرناطة وسلمت ، وانتهت دولة الاسلام بالاندلس (صفر ٨٩٧ هـ ديسمبر سنة ١٤٩١ م) وطويت الى الابد تلك الصفحة المجيدة الرائعة من تاريخ الاسلام ، وقضى على تلك الحضارة الاندلسية الشامخة وآدابها وعلومها وفنونها وكل ذلك التراث الباهر بالفناء والمحو ، ودخل النصارى غرناطة فى الثانى من ربيع الاول سنة ٨٩٧ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) واحتلوا حمراءها وباقى قصورها وحصونها وخفق علم النصرانية ظافرا فوق صرح الاسلام المنهار

* * *

اما الملك الناصر ابو عبد الله فقد قضت معاهدة التسليم أن يغادر غرناطة مع أسرته الى البشرات وأن يحكم هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وفى طاعته وأن يكون مقره فى قرية اندرش . ولما ذاعت أنباء التسليم اضطرم الشعب غضبا وسخطا على أبى عبد الله واعتبره مصدر كل مصائبه ومحنه : فبادر أبو عبد الله بالأهبة للسفر مع أسرته وخاصته وحشمه ، وبعث بأمواله ونفيس متاعه الى مقره الجديد فى اندرش . وفى نفس اليوم الذى دخل النصارى فيه غرناطة ، غادر أبو عبد الله قصره وموطن عزه ومجده الى آبائه الأبعد : وخرج للقاء عدوه الظافر فى سرية من الفرسان والخاصة ، فاستقبله فرديناند فى محلته على ضفة شنيل . وتصف الرواية هذا المنظر المؤثر فتقول ان أبا عبد الله حين رأى فرديناند هم بترك جواده ، ولكن فرديناند

(١) هو قصر الحمراء الكبير وما حوله من الحصون والابراج

(٢) راجع تفاصيل هذه الرواية فى أخبار العصر بانقضاض دولة بنى نصر ص ٣٤ - ٤٨ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ ، وراجع كتابى مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام (الفصل السادس عشر) .

(٣) راجع تفاصيل هذه الشروط فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ و ٦١٦

بادر بمنعه وعانقه بعطف ورعاية ؛ ثم قدم اليه أبو عبد الله مفاتيح الحمراء قائلا : « ان هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في اسبانيا . وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا . هكذا قضى الله ، فكن في ظفرك رحيما عادلا » . وسار أبو عبدالله بعد ذلك صحبة فرديناند الى حيث كانت الملكة ايزابيلا ، فقدم اليها تحيـــاته وخضوعه ، ثم انحدر الى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته .

وهنا تقول الرواية أن أبا عبد الله اشرف أثناء مسيره في شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة فوقف يسرح بصره لآخر مرة في هاتيك الربوع العزيزة التي ترعرع فيها ، وشهدت مواطن عزه وسلطانه : فانهمر في الحال دمعه وأجهش بالبكاء ، فصاحت به أمه عائشة : « أجل فلتبك كالنساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنـــه كالرجال » . وتعرف الرواية الاسبانية تلك الأكمة التي كانت مسرحا لذلك المنظر المحزن باسم شعري مؤثر هو : « زفرة العربي الأخيرة » El ultimo Sospiro del Moro . وما تزال قائمة حتى اليوم بعينها بمكان تلك المنطقة للسائح المتجول .

ثم تقول الرواية أيضا إن باب غرناطة الذي خرج منه أبو عبد الله لآخر مرة قد سد عقب خروجه برجاء منه الى ملك قشتالة وبنى مكانه حتى لا يجوزه من بعده انسان (١)

لم يطل مكث أبي عبد الله بمقره الجديد في اندرش ، ولم تمض أشهر قلائل حتى أدرك كما أدرك عمه من قبل أنه يستحيل عليه البقاء في هذا الوضع الشاذ كعامل لملك قشتالة ، وكان فرديناند من جانبه ينظر الى وجوده بعين الريب ويخشى أن يكون مثار الفتنة ؛ فعول أبو عبد الله أن يحذو حذو عمه في الجواز الى افريقية ، ونزل لفرديناند عن حقوقه نظير مبلـــغ كبير ، ثم جاز بأسرته وماله ومتاعه من ثغر المرية الى المغرب الأقصى في سفن أعدت له (١٤٩٣م) ونزل أولا بمليلة ، ثم قصد الى فاس واستقر بها ، وتقدم الى ملكها السلطان محمد شيخ بني وطاس الذين خلفوا بني مرين في الملك ، مستجيرا به ، مستظلا بلوائه ورعايته ، معتذرا عما أصاب الاسلام في الأندلس على يده ، متبرئا مما نسب اليه ، وذلك في كتاب طويل مؤثر كتبه عن لسان كاتبه ووزيره محمد بن عبد الله العربي العقيلي ، وسماه « بالروض العاطر الانفاس في التوسل الى المولى الامام سلطان فاس » . وقد افتتحها بعد الديباجة بقصيدة رائعة هذا مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لها مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار انت لمن ... جار الزمان عليه جور متقم
حتى غـــدا ملكه بالرغم مستلبا ... وافترع الخطب ما يأتي على الرغم
حـــكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحـــكم منه منحتم
كنا ملوكا لنا في أرضنـــا دول ... ثمنا بها تحت أفنان من النعم
فايقظتنا سهام للردى صبت ... يرمي بأفجع حتف من بين رمي
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا ... وأي ملك بظل الملك لم ينم

وهي طويلة جدا ، يمتدح فيها ملوك فاس ويشيد بعلاقتهم القديمة مع بني الأحمر : ويشير ابو عبد الله بعد ذلك الى حوادث الاندلس ، ويعتذر عن نكبته : ويعترف بخطأه . ومن قوله في ذلك « اللهم لا برىء فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، ولكني مستقيل مستنيل ، مستغيث ، مستغفر ؛ وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء ، بيد انه يدفع عن نفسه تهم الزيغ والتفريط والخيانة بشدة ، ويقول : « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خيرفيها ، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ، ما يقنع النفوس ويكفيها ؛ فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصفر ، ولا يسوغ لنا الايمان الاقامة بين ظهراني الكفرة ، ما وجدنا على ذلك مندوحة ولو شاسعة » ثم يرثي ملكه بعبارات مؤثرة منها : « ثم عزاء جميلا وصبرا أجميلا ، عن أرض ورثها من شاء من عباده معقبا لهم ومديلا ، وسادلا عليهم من ستور الأملاء الطويلة سدولا ، سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . فليطر الطائر الوسواس المرفرف مطيرا كان ذلك في الكتاب مسطورا » لم يستطع غير

(١) بركوت ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ـ سواير فيج (الفصل التاسع والثمانون) يذكر ايرفيج في خاتمة كتابه (فتح غرناطة) أنه توجد في متحف جنة العرفي (جنرالايف) بغرناطة صورة لابي عبد الله تمثله بوجه وسيم ولون جذل وشعر أصفر ، ويرتدي فيها ثوبا أصفر يظلله حرير أسود ، وقلنسوة من الحرير الاسود يعلوها التاج . ويوجد في متحف مدريد الحربي ثوبان درعان يقال انهما كانا لابي عبد الله ، ويبدو من حجمهما أن أبا عبد الله كان كبير القد قوي البنية . ويخصص ايرفيج في كتابه Tales of The Alhambra فصلان للذكريات والآثار الخاصة بابي عبد الله .

مورده صدوراً . وكان أمر الله قدراً مقدوراً » (١)

واستقر أبو عبد الله في فاس في ظل بني وطاس ، وشيد بها قصوراً على طراز الاندلس رآها وتجول فيها المقرى مؤرخ الاندلس بعد ذلك بنحو قرن (١٠٣٧ هـ — ١٦٢٨ م) ، وقضى أعواما طوالا في غمر الحسرات والذكريات المفجعة ، وتوفى سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٤ م) . (٢) ودفن بفاس ، وترك ولدين هما يوسف وأحمد ، واستمر عقبه متصلا معروفا بفاس مدى أحقاب ، ولكنهم انحدروا قبل بعيد الى هاوية البؤس والفاقة ، ويذكر لنا المقرى انه رآهم سنة ١٠٣٧ هـ فقراء معدمين يعيشون من أموال الصدقات (٣) وفي بعض الروايات الاسبانية أن أبا عبدالله توفى قتيلا في موقعة نشبت بين السلطان احمد الوساطى وبني سعد الخوارج عليه في وادى أبي عقبة وقاتل فيها أبو عبد الله جانب أصدقائه بني وطاس وذلك سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م) (٤) بيد أنها رواية ظاهرة الضعف لان أبا عبد الله يكون في هذا التاريخ قد جاوز السبعين ، ومن الصعب أن نصدق أنه يخوض مثل هذه المعارك الطاحنة بعد أن هدمه الاعياء والهرم ، هذا الى أن الرواية الاسلامية في هذا الموطن أدعى الى الترجيح والثقة

ويعرف أبو عبد الله آخر ملوك الاندلس بالملك الصغير (وبالاسبانية El Rey Chico) تمييزا له من عمه أبي عبدالله الزغل ، ويلقب بالزغيبي ، أو عاثر الحظ تنويها بما أصابه وأصاب الاسلام على يده من الخطوب والمحن

* * *

هذه قصة مصرع الاندلس ، وقصة آخر ملوكها

وصار ما كان من ملك ومن ملك كما حكى عن خيال الطيف وسنان

تم البحث محمد عبد الله عنان

---

(١) أورد المقري هذا الكتاب بعينه في نفح الطيب ج ٢ ص ١٢ — ٦٢٨ — وفي ازهار الرياض ص ٦٢ — ٨٢

(٢) وذكر المقرى في أزهار الرياض أنه توفى سنة ٩٢٤ هـ (ص ٥٨) وهي رواية خاطئة

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧

(٤) راجع ايرفيج — في الملحق الخاص بنهاية ابي عبد الله — وراجع الاستقصا في تاريخ المغرب الاقصى للسلاوي ج ٢ ص ١١٨

المشتهى

بحث طريف لم ينشر

للعلامة المغفور له احمد تيمور باشا

ذكره المقريزى في خططه في كلامه على متنزهات الفاطميين ، ولكن الذى ورد عنه في النسخ التى اطلعنا عليها لا يعد وهذه الجملة المقتضبة « وكان من مواضعهم التى أعدت للنزهة المشتهى » وبعدها بياض متروك ، غير أن السيوطى نقل عنه في كوكب الروضة مانصه : « قال المقريزى كان من مواضع الخلفاء الفاطميين التى أعدت للنزهة المشتهى بالروضة وكانوا يركبون اليه يوم السبت والثلاثاء فيعم الناس من الصدقات أنواع مابين ذهب ومآكل وحلوى وغير ذلك » ولا ريب في أن هذه الزيادة من كلام المقريزى ، لأن السيوطى أعقب العبارة بقوله (انتهى) . وذكرها الشيخ عبد الغنى النجدي النابلسى في رحلته المسماة بالحقيقة والمجاز (١) عن المقريزى بهذا النص أيضا ، فالظاهر أنهما نقلاها عن نسخة من الخطط بها هذه الزيادة أو عن تاريخ المقريزى المسمى بالسلوك . ثم أوردا بعدها أبيات الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض التى منها :

وطنى مصر وفيها وطرى ولعينى مشتهاها مشتهاها

وقال الشيخ عبدالغنى النابلسى في شرحه لديوانه : المشتهى الثانى اسم كان في مصر تدخل اليه فرقة من ماء النيل وهو متنزه مشهورا . وله ذكر في الأشعار المصرية في حسن المحاضرة وغيره من كتب الأدب والتاريخ انتهى . قلنا نعم أكثر الشعراء من ذكره وأورد السيوطى في كوكب الروضة وحسن المحاضرة كثيراً من مقطعاتهم فيه ، ومنها قول ابن الفارض أيضاً مشيراً اليه والى المقياس والروضة وكان كثير التردد على المسجد الذى فيه أيام النيل

لقد بسطت في بحر جسمك بسطة أشارت اليها بالوفاء أصابع

فيا مشتهاها أنت مقياس قدسها وأنت بها في روضة الحسن يانع

ولكن الغريب ألا ترى في كتب التاريخ ذكراً لموضعه بالروضة ولا نعرف من خبره غير القليل الذى رواه المقريزى ، ولولا

---

(١) الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز للعلامة عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ كتاب مخطوط لم يطبع بعد ، وفيه فوائد كثيرة ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية واثنتان عندنا .